راقصات عصر التنوير

«وإنّما الأُمَمُ الأخلاقُ ما بَقِيَتْ.. فَإنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخلاقُهُمْ، ذَهَبُوا».. قديمًا علمونا في المدارس إن الأخلاق هي عماد الأمة، وأن فساد أخلاقنا حتمًا سيجعلنا أضحوكة عالم يسمو بصفاته، فرضوا علينا منهجًا حشوا به عقولنا بحُسن الآبياتِ، ونسوا أن يعلمونا سلوكًا نبني به أمةً تسمو علي الخلائق، لم نعد نفهم أن صلاح أمرنا للأخلاق مرجعهُ، فلم نقوّم النفس بالأخلاق حتي نستقيمَ، وعزمنا علي تقديم شرور ذهبت أخلاقهم، فصرنا قومِ أُصيبُ في أخلاقهم، قدمنا مفاتنهم للصغار قدوةٌ، ثم أقمنا علي دولنا مأتمًا وعويلاَ، وصدق شوقي بقصيدته، فقد كان في حُسن الأخلاق أميرًا.

●●●

مسقط رأسي داخل إحدي غرف دار نشر شهير، فتي صغير، لم يتجاوز عامه الأول في دنيا التأليف، يعيش تجربته الأولي مع عالم الناشرين، كثيرًا أدعي إنتماءًا لعالم المثقفين، أخذ يرمي ناظريه يمينًا ويسارًا، يقارن عنوان مؤلفه بعناوين مؤلفات مبعثرة حوله، فارتسمت علي وجهه ابتسامة شغف العاشقين، وانعكس

علي عيناه وهج نيران أتت من قاع مُظلم، لهفة وشوق لسماع تلك التي طالما حلم بها سنين.

«مؤلف ثري يتفق مع واقع أليم نتعايشه ليل نهار.. ولكن للأسف يا سيدي ليس له مكانًا في هذه الدار».. كصاعقة ضربت شجرة يافعة فاحترقت أوراقها، نزلت تلك العبارة علي رأس الفتي، لتخرجه من حُلم كان صرحًا من خيال فهوي، كجلمود صخر التصق بكرسيه، لم يجرؤ علي التفوه بكلمة، بين الفينه والأخري ينظر إلي مخطوطة مؤلفه حسرة، ثم يرنو إلي الرجل متسائلاً، من خلف مكتبه جلس مزهوًا بما أحدثه من تأثير قائلاً، «يا عزيزي ليس هذا زمن الكُتب».

«لو كانت رواية كان الناشرين خطفوها منك».. كشخص إرتكب جريمة أطرق رأسه خجلاً، بصوت خافت راح يردد ساخراً: «كيف فعلت تلك الفعلة الحمقاء، كيف أكتب كتاباً وليس رواية.. والأدهي أنه كتاباً علمياً وليس سياسياً كتلك التي تدعي معرفة ببواطن الأمور الإستراتيجية»، نهض الفتي مقدمًا اعتذاره للرجل علي تلك الفعلة الحمقاء، واعدا اياه بعدم تكرار تلك الفعلة الشائنة، بل أنه أقسم بأن لا تلمس أنامله قلم قط، ولكنه كالعادة حنث يمينه وعاد بعد اليوم إلي القلم كاتبا.

وقف الفتي يلملم أوراق مؤلفه نادمًا، في حين تجاهله صاحب الدار لمداعبة كلبه مدللاً، اقتحم الغرفة فجأة خادمه، معلنًا قدوم تلك الزائرة، لتدخل الغرفة أنثي أقل ما توصف بأنها فتاة ساحرة، ترتدي ما يكاد يستر جسد بض وافر الطلاوة واللمعان، تُظهر مفاتن عجزت معه حواس الرجل فإنطلق إليها مستقبلا، انحني علي يديها مقبلاً، وضع يمينه علي خسرها داعيًا اياها للجلوس، وقد نسي ذلك الفتي الذي ظن نفسه يومًا كاتبًا، جلست أمامه وقد وضعت ساقٍ فوق ساق، ليتجهم وجه الرجل محملقًا، صار أبلها فاغرًا فاه، فبادرته بصوت متميع قائله، «عندي ليك كتاب إنما إية متقولش يا ملك الثقافة»، فتهلل وجه الرجل وقد ظن إنه لعالم الكتب مثقفًا.

●●●

اكتظت صالة تحرير الصحيفة بمحرريها، فاليوم الاجتماع الإسبوعي، لذلك راح كل صحفي يُعد ورقة أفكاره، علّه يفوز بثقة رئيسه فيفرد له صفحة كاملة، أو أن ينال حظه العثر من عنوان في الصفحة الأولي، قطع همهماتهم دخول رجل ضخم، عريض المنكبين أصلع الرأس ذو كرش كاد يمزق قميصه المزركش، فأسرع البعض لاستقباله استقبال الفاتحين، في حين تفرغ البعض الأخر لمدحه قائلين، ما أجمل ما كتبت أناملـه.

اتسعت ابتسامة رئيس التحرير الخبيثة، بينما انتفخت أوداجه، كطاووس مختال جلس علي كرسي القيادة قائلاً، تلك مجرد كلمات كتبتها، انفرد بنفسي داخل مكتبي، وعلي أنغام السيدة أم كلثوم احتسي قهوتي، وبين أنفاس سيجارتي تخرج تلك الكلمات الرائعة، ثم اعتدل موجهًا حديثه لكل من في صالة التحرير، هيا أخبروني بأفكاركم علها تُحظى باعجابنا، فأسرع الجميع بطرح أفكاره، أملين أن تحوز أفكارهم موافقة.

أظهر رئيس التحرير تململاً، فقد مرت الساعة دون أن يسمع ما يرضيه، حتي رأها قادمة، فتاة صغيرة سافرة، كذبت حينما زعمت إنها محررة، ترتدي زيًا لا يليق بمجتمع الكاتبات، تتفوه ألفاظًا لا تنسجم مع عالم المثقفين، وان كانت تمتلك صفات لا تروق إلا لذلك الأصلع البدين، فأمر الجالس بجواره لينهض تاركًا مقعده لها، وقد عاد لمزاجه البائس رونقه، نسي أنه يعقد مع الجميع إجتماعًا، فراح يعدد مفاتن حسنها، ناولته أوراق أخر ما كتبت، فالتقطها قائلاً ما أبدعه.

«هيا لينصرف الجميع إلي عمله».. قالها الرجل لينهي إجتماع المحررين، ثم التفت إلي مساعده يناوله أوراق تلك الفتاة قائلاً بحماس غريب، احجز لهذا الملف صفحة كاملة، ولا تنسي أن تشير إليه في الصفحة الأولي، ثم أشار إلي الفتاة أن تتبعه قائلاً بصوت

هامس، هيا إلي مكتبي لتشرحي لي أمر ذاك الملف، ليقضي علي أمال من لو كان إلتفت إليهم لصُعق من هول ما سيري، ولتفوز بحق ما كانت لتنوله لولا وجود ذلك المسخ في بلاطها.

●●●

فقد عقله بمجرد أن نظر للعالم من أعلي المباني